

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربيع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع، وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع، فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع، الغني الذي ليس له شريك ولا منازع، القادر الذي بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه، وقصر أيدي القياصرة عظمتة وكبرياؤه، فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه، جل جلاله وتقدّست أسماؤه، والصلاة على محمد الذي أنزل عليه النور المنتشر ضهاؤه، حتى أشرفت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحياء الله وأوليائه، وخيرته وأصفيائه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فقد قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَمْتُهُ»^(١)، وقال ﷺ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ وَهُوَى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»^(٢)، فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله مقوتان بغيضان. وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات. ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين: شطر في الكبر، وشرط في العجب.

الشرط الأول من الكتاب: في الكبر وفيه، بيان ذم الكبر، وبيان ذم الاختيال، وبيان فضيلة التواضع، وبيان حقيقة التكبر وأفته، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر، وبيان ما به التكبر، وبيان البواعث على التكبر، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر، وبيان علاج الكبر. وبيان امتحان النفس في خلق الكبر، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه.

٥٢٠ كتاب ذم الكبر والعجب

(١) صحيح دون ذكر «العظمة»: حديث «قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته». أخرجه الحاكم في المستدرک دون ذكر «العظمة» وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم في العلم، وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر. [انظر صحيح الجامع: ٤٣٠٩].

(٢) حسن: حديث «ثلاث مهلكات.. الحديث». أخرجه البزار والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضا. [انظر صحيح الجامع: ٣٠٣٩، صحيح الترغيب: ٤٥٣].

بيان ذم الكبر:

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى: ﴿سَاءَ صِرْفٌ عَنَّا آيَاتُ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] وقال تعالى:

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُصِيبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [الحل: ٢٣] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] وذم الكبر في القرآن كثير، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»^(١) وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي»^(٢)، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمرو على الصفا فتواقفا، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: هذا، يعني عبد الله بن عمرو، زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه»^(٣)، وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب»^(٤)، وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما، للطير والإنس والجن والبهايم: اخرجوا، فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات، ثم خفض حتى مسّت أقدامه البحر، فسمع صوتا: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخشفت به أبعد مما رفعته. وقال ﷺ: «يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول: وكنت بثلاثة. بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين»^(٥)، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار»

(١) صحيح: حديث «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان». أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود. [مسلم: ٩١].

(٢) صحيح: حديث أبي هريرة يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم». أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له، وقال أبو داود «قدفته في النار» وقال مسلم «عذبه» وقال «رداؤه» و «إزاره» بالغيبة وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضا. [مسلم: ٢٦٢٠، أبو داود: ٤٠٩٠].

(٣) حديث عبد الله بن عمرو «من كان في قلبه مثقال حبة من كبر كبه الله في النار على وجهه». أخرجه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح.

(٤) ضعيف: حديث «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين .. الحديث». أخرجه الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله «من العذاب». [الترمذي: ٢٠٠٠، وانظر ضعيف الجامع: ٦٣٤٤، ضعيف الترغيب: ١٧٤٤].

(٥) صحيح: حديث «يخرج من النار عنق له أذنان .. الحديث». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب. [الترمذي: ٢٥٧٤، وانظر صحيح الجامع: ٨٠٥١، صحيح الترغيب: ٣٠٦١].

وَلَا سَبِيءُ الْمَلَكَةِ»^(١)، وقال ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَبِالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضَعْفَاءُ النَّاسِ وَسُقَاطُهُمْ وَعَجَزَتُهُمْ؟ فَقَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمْ مَلُؤُهُا»^(٢)، وقال ﷺ: «بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَعَاطَدَى وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاخْتَالَ وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالَ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ غَفَلَ وَسَهَا وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْيَلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا وَبَغَى وَنَسِيَ الْمَبْدَأَ وَالْمُنْتَهَى»^(٣)، وعن ثابت أنه قال: بلغنا أنه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان فقال: «أَلَيْسَ بَعْدَهُ الْمَوْتُ»^(٤)، وقال عبد الله بن عمرو: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ وَقَالَ: إِنِّي أَمْرُكُمَا بِائْتِنِّي وَأَنَّهُمَا كَمَا عَنِ اثْنَتَيْنِ، أَنَّهُمَا كَمَا عَنِ الشَّرِكِ وَالْكَبِيرِ، وَأَمْرُكُمَا بِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ. فَإِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِنَّ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَتْ لِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى كَانَتْ أَرْحَجَ مِنْهُمَا، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِنَّ كَانَتْ حَلْقَةً فُوضِعَتْ لِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهَا لَقَصَمْتَهَا، وَأَمْرُكُمَا بِسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلَاةٌ كُلُّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ»^(٥)، قال المسيح عليه السلام: طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارًا. وقال ﷺ: «أَهْلُ النَّارِ كُلُّ جَعْفَرِي جَوْاطِ مُسْتَكْبِرٍ جَمَاعَ مَنَاعٍ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضُّعَفَاءُ الْمُقِلُّونَ»^(٦)، وقال ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَّا فِي الْآخِرَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيْنَا وَأَبْعَدَكُمْ مِنَّا الشُّرَثَاوُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَهِّقُونَ» قالوا: يا رسول الله قد علمنا الشرثارون والمتشدقون فما المتفهبون؟ قال: «الْمُتَكَبِّرُونَ»^(٧)، وقال ﷺ: «يُخْشِرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِثْلِ صُورِ الذُّرِّ

(١) ضعيف: حديث «لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سبيء الملكة». تقدم في أسباب الكسب والمعاش والمعروف «خائن» مكان «جبار». [انظر ضعيف الترغيب: ١١٨٨].

(٢) حديث «تحتاج الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين.. الحديث». متفق عليه من حديث أبي هريرة. [البخاري: ٤٨٥، مسلم: ٢٨٤٦].

(٣) ضعيف: حديث «بئس العبد عبد تجبر واعتدى.. الحديث». أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس إسناده بالقوي ورواه الحاكم في المستدرک وصححه [الترمذي: ٢٤٤٨، وانظر ضعيف الجامع: ٢٣٥٠، ضعيف الترغيب: ١٧٤٢] ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه. [انظر ضعيف الترغيب: ١٠٨٤].

(٤) حديث ثابت: بلغنا أنه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان؟ فقال «أليس بعده الموت». أخرجه البيهقي في الشعب هكذا مرسلًا بلفظ «تجبر».

(٥) صحيح: حديث عبد الله بن عمرو «إن نوحًا لما حضرته الوفاة دعا ابنه.. الحديث». أخرجه أحمد والبخاري في كتاب الأدب والحاكم بزيادة في نقله قال صحيح الإسناد. [انظر الصحيحة: ١٣٤، صحيح الأدب المفرد: ٥٤٨، صحيح الترغيب: ١٥٤٣].

(٦) صحيح: حديث «أهل النار كل جعفري جواظ مستكبر جماع مناع». وهو بغير هذه الزيادة عندهما من حديث حارثة بن وهب الخزاعي «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر». [البخاري: ٤٩١٨، مسلم: ٢٨٥٣، وهو صحيح بهذه الزيادة، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٩٧، الصحيحة: ١٧٤١].

(٧) صحيح: حديث «إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحسنكم أخلاقًا.. الحديث». أخرجه أحمد من

تَطَوُّهُمُ النَّاسُ، ذَرًّا فِي مِثْلِ صُورِ الرَّجَالِ يَغْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصُّغَارِ، ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولُسُ يَغْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْتَارِ يُسَقُونَ مِنْ طِينِ الْحَبَالِ غُصَّارَةَ أَهْلِ النَّارِ»^(١)، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «يُخَشِرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورِ الذَّرِّ تَطَوُّهُمُ النَّاسُ لِيَهَوَانِيهِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى»^(٢)، وعن محمد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له يا بلال: إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَاوِيًّا يُقَالُ لَهُ هَبْهَبٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُشَكِّنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ، فَإِنَّكَ يَا بِلَالُ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَشْكُنُهُ»^(٣)، وقال ﷺ: «إِنَّ فِي النَّارِ قَصْرًا يُجْعَلُ فِيهِ الْمُتَكَبِّرُونَ وَيُطَبَّقُ عَلَيْهِمْ»^(٤)، وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْحَةِ الْكِبْرِيَاءِ»^(٥) وقال ﷺ: «مَنْ فَارَقَ رُوحَهُ جَسَدَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ: الْكِبْرَ وَالذَّنْبَ وَالغُلُولَ»^(٦).

الأثار: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يحقرن أحد أحدًا من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير. وقال وهب: لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره، فجاء يومًا ومصعب ماذ رجله فلم يقبضهما، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجبتا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين. وقال الحسن: العجب من ابن

حديث أبي ثعلبة الخشني بلفظ «إلي» و«مني» وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث. [انظر صحيح الجامع: ١٥٣٥، صحيح الترغيب: ٢٦٦٢].

(١) حسن دون قوله: «تطوهم الناس»: حديث «يخشرون المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطوهم الناس.. الحديث». أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال غريب. [الترمذي: ٢٤٩٢، وانظر صحيح الجامع: ٨٠٤٠، صحيح الترغيب: ٢٩١١، صحيح الأدب المفرد: ٥٥٧].

(٢) حديث أبي هريرة «يخشرون الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر.. الحديث». أخرجه البزار هكذا مختصرًا دون قوله «الجبارون» وإسناده حسن.

(٣) ضعيف: حديث أبي موسى «إن في جهنم واديًا يقال له هبهب». أخرجه أبو يعلى والطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد، قلت فيه أزهري بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له في الضعفاء هذا الحديث. [انظر ضعيف الجامع: ٤٠١١، ضعيف الترغيب: ١٣٢٩، الضعيفة: ١١٨١].

(٤) ضعيف: حديث «إن في النار قصرًا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أنس وقال «تواييت» مكان «قصرًا» وقال «فيقفل» مكان «يطبق» وفيه أبان بن أبي عياش وهو ضعيف. (٥) لم أجده بهذا اللفظ: حديث «اللهم إنني أعوذ بك من نفخة الكبرياء». لم أره بهذا اللفظ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ في أثناء حديث «أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفته وهمزه» قال: نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة [أبو داود: ٧٦٤، ابن ماجه: ٨٠٧]، ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه، تكلم فيه أبو داود وقال الترمذي هو أشهر حديث في هذا الكتاب. [أبو داود: ٧٧٥، الترمذي: ٢٤٢، وانظر صحيح أبي داود، المشكاة: ١٢١٧، صفة الصلاة ص (٩٥)].

(٦) صحيح: حديث «من فارق روحه جسده، وهو بريء من ثلاثة، دخل الجنة». أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق للمشهور في الرواية أنه الكبر (بالموحدة والراء) لكن ذكر ابن الجوزي في جامع المسانيد عن الدارقطني قال إنما هو الكنز (بالنون والزاي) وكذلك أيضا ذكر ابن مردويه الحديث في تفسير «وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» [التوبة: ٣٤]. [الترمذي: ١٥٧٣، ابن ماجه: ٢٤١٢، وانظر صحيح الجامع: ٦٤١١، صحيح الترغيب: ١٧٩٨، الصحيحة: ٢٧٨٥].

آدم، يغسل الخبز بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات. وقد قيل في ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] هو سبيل الغائط والبول. وقد قال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبير قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو أكثر. ومثل سليمان عن السيفة التي لا تنفع معها حسنة فقال: الكبير. وقال النعمان بن بشير، علي المنبر، إن للشيطان مصالي وفخوحًا، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه.

بيات زم الاختيالات واطهار آثار الكبير في المسي ودهر الثياب:

قال رسول الله ﷺ: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ يَجْرُو إِزَارَهُ بَطْرًا»^(١)، وقال ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَبْتَخِرُ طَرَفِي بُرْدَتِهِ إِذْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَحَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢)، وقال ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وقال زيد بن أسلم: دخلت على ابن عمر فمرّ به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعت يقول: أي بني ارفع إزارك فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ خِيَلَاءَ»^(٣). وروي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليه وقال: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُ آدَمَ أَتَعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَتَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَتَيْدٌ جَمَعَتْ وَمَنْعَتْ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنْتَى أَوْ أَنْ الصَّدَقَةَ»^(٤)، وقال ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيِّطَاءُ وَخَدَمَتْهُنَّ فَارِسُ وَالرُّومُ سَلَطَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ»^(٥)، قال ابن الأعرابي: هي مشية فيها اختيال. وقال ﷺ: «مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ وَاخْتَالَ فِي مَشْيِهِ لَقِيَ اللَّهُ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَان»^(٦).

(١) صحيح: حديث «لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطراً». متفق عليه من حديث أبي هريرة. [البخاري: ٥٧٨٨، مسلم: ٢٠٨٧].

(٢) صحيح: حديث «بينما رجل يتبختر في بردته إذ أعجبتة نفسه .. الحديث». متفق عليه من حديث أبي هريرة. [البخاري: ٥٧٨٩، مسلم: ٢٠٨٨].

(٣) صحيح: حديث ابن عمر «لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء». رواه مسلم مقتصراً على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله بن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم أن المار رجل من بني ليث غير مسمى. [مسلم: ٢٠٨٥].

(٤) صحيح: حديث: إن رسول الله ﷺ بصق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليها وقال «يقول الله تعالى: ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه! .. الحديث». أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث بشر بن جحاش. [ابن ماجه: ٢٧٠٧، وانظر صحيح الجامع: ٨١٤٤، الصحيحة: ١٠٩٩].

(٥) صحيح: حديث «إذا مشت أمتي المطيطاء .. الحديث». أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر: المطيطاء (بضم الميم وفتح الطاءين المهملتين بينهما مثناة من تحت) مصفراً ولم يستعمل مكبراً. [الترمذي: ٢٢٦١، وانظر صحيح الجامع: ٨٠١، صحيح الترغيب: ٢٩١٩].

(٦) صحيح: حديث «من تعظم في نفسه واختال في مشيه». أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر. [انظر صحيح الجامع: ٦١٥٧، صحيح الترغيب: ٢٩١٨، الصحيحة: ٥٤٣].

الأثار: عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهمم يريد المقصورة وعليه جباب خز، قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف... أف... شامخ بأنفه ثاني عطفه مصغر خده ينظر في عطفه، أي حميق أنت تنظر في عطفك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حق الله منها، والله أن يمشي أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لفته، فسمع ابن الأهمم فرجع يعتذر إليه فقال: لا تعتذر إليّ وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّيْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]؟ .

ومرّ بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له: ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله، كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك داو قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم.

وروي أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف، فنظر إليه طاوس وهو يختال في مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثم قال: ليست هذه مشية من في بطنه خراء؟ فقال عمر كالمعتذر: يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها. ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم. وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله، ورأى ابن عمر رجلاً يجترّ إزاره فقال: إن للشيطان إخواناً، كررها مرتين أو ثلاثاً، . ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خز، فقال: يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله، فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك أولئك نطفة مذرة وآخرتك جيفة قدرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة فمضى المهلب وترك مشيته تلك. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [الغابة: ٣٣] أي يتبختر وإذ قد ذكرنا ذم الكبير والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع، والله تعالى أعلم.

بيات فضيلة التواضع:

قال رسول الله ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفَعَهُ اللهُ» (١)، وقال ﷺ: «ما من أحدٍ إلا ومعه ملكانٌ وعليه حكمةٌ يُنسِكانهِ بها فإن هُوَ رَفَعَ نَفْسَهُ جَبَدَاهَا ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ ضَعْفُهُ وَإِنْ وَضَعَ نَفْسَهُ قَالَ اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ» (٢)، وقال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ وَأَنْفَقَ مَالًا جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَرَزَجِمَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ»

(١) صحيح: حديث «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً.. الحديث». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم. [مسلم: ٢٥٨٨].

(٢) ضعيف: حديث «ما من أحدٍ إلا ومعه ملكانٌ وعليه حكمةٌ يمسانه بها.. الحديث». أخرجه العقيلي في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة والبيهقي أيضاً من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف.

وَالْحِكْمَةِ^(١)، وعن أبي سلمة المدني عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ عندنا بقباء وكان صائماً فأتيناه عند إفطاره بقدر من لبن وجعلنا فيه شيئاً من غسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال: «ما هذا؟» قلنا: يا رسول الله جعلنا فيه شيئاً من غسل فوضعه وقال: «أما إنني لا أحرّمُهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ، وَمَنْ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ بَدَّرَ أَفْقَرَهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذَكَرَ اللَّهُ أَحَبَّهُ اللَّهُ»^(٢).

وروي أن النبي ﷺ: «كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكره منها فأذن له، فلما دخل أجلسه رسول الله على فخذه ثم قال له: «اطعمم» فكأن رجلاً من قريش اشماز منه وتكرهه فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها»^(٣) وقال ﷺ: «لخَيْرِنِي رَبِّي بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا أَوْ مَلِكًا نَبِيًّا فَلَمْ أَذَرِ أَيُّهُمَا اخْتَارَ وَكَانَ صَفِيًّا مِنَ الْمَلَائِكَةِ جِبْرِيلُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهِ فَقَالَ: تَوَاضَعُ لِرَبِّكَ فَقُلْتُ عَبْدًا رَسُولًا»^(٤) وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم على خلقي وألزم قلبه خوفاً وقطع نهاره بذكره وكف نفسه عن الشهوات من أجله، وقال ﷺ: «الكَرَمُ التَّقْوَى وَالشَّرْفُ التَّوَضُّعُ وَالْيَقِينُ الْغِنَى»^(٥)، وقال المسيح عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا

(١) ضعيف: حديث «طوبى لمن تواضع في غير مسكنة.. الحديث». أخرجه البغوي وابن قانع والطبراني من حديث ركب المصري والبخاري من حديث أنس وقد تقدم بعضه في العلم وبعضه في آفات اللسان. [انظر ضعيف الجامع: ٣٦٤٢، ضعيف الترغيب: ١٣٦٨].

(٢) ضعيف جداً دون قوله: «من تواضع لله رفعه الله» حديث أبي سلمة المدني عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ عندنا بقباء وكان صائماً.. الحديث، وفيه «ومن تواضع لله رفعه الله.. الحديث». رواه البخاري من رواية طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله «ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ولم يقل بقباء» وقال الذهبي في الميزان إنه خير منكر وقد تقدم ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة قالت أتى رسول الله ﷺ بقدر من لبن وغسل... الحديث، وفيه «أما إنني لا أعزم أنه حرام... الحديث» وفيه «من أكثر ذكر الموت أحبه الله» وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد دون قوله «ومن بذر أقره الله» وذكرنا فيه قوله «ومن أكثر ذكر الله أحبه الله» وتقدم في ذم الدنيا. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩١٠، الضعيفة: ٤٨٧٥، صحيح الجامع: ٦١٦٢].

(٣) ضعيف: حديث السائل الذي كان به زمانة منكراً، وأنه ﷺ أجلسه على فخذه ثم قال «اطعمم».. الحديث. لم أجد له أصلاً والموجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذي غريب. [أبو داود: ٣٩٢٥، الترمذي: ١٨١٧، وهو ضعيف، وانظر ضعيف الجامع: ٤١٩٥، الضعيفة: ١١٤٤].

(٤) صحيح دون قوله: «فلم أدري... إليه»: حديث «خيرني ربي بين أمرين أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً.. الحديث». أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف. [انظر صحيح الترغيب: ٣٢٨٠، الصحيحة: ١٠٠٢، بداية السؤل ص (٦٤)].

(٥) صحيح دون قوله: «والشرف...»: حديث «الكرم التقوى، والشرف التواضع، واليقين الغنى». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلًا [وهو ضعيف، انظر ضعيف الجامع: ٤٢٩٩، الضعيفة: ٤١٥٨] وأسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الإسناد. [انظر صحيح الجامع: ٣١٧٨].

هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة. وقال بعضهم: بلغني أن النبي ﷺ قال: «إِذَا هَدَى اللَّهُ عَبْدًا لِلْإِسْلَامِ وَحَسَّنَ صُورَتَهُ وَجَعَلَهُ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ شَائِنٍ لَهُ وَرَزَقَهُ مَعَ ذَلِكَ تَوَاضَعًا فَذَلِكَ مِنْ صَفْوَةِ اللَّهِ»^(١)، وقال ﷺ: «أَرْبَعٌ لَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ: الصُّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ. وَالتَّوَاضُّعُ، وَالتَّوَهُدُّ فِي الدُّنْيَا»^(٢)، وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَوَاضَعَ الْعَبْدُ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ»^(٣)، وقال ﷺ: «التَّوَاضُّعُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا رَفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ»^(٤)، ويروى أن رسول الله ﷺ كان يطعم فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه^(٥)، وقال ﷺ: «إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَحْمِلَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ فِي يَدِهِ يَكُونُ مَهْنَةً لِأَهْلِهِ يَدْفَعُ بِهِ الْكِبْرَ عَنْ نَفْسِهِ»^(٦)، وقال النبي ﷺ لأصحابه يوماً: «مَا لِي لَا أَرَى عَلَيْكُمْ حِلَاوَةَ الْعِبَادَةِ؟ قَالُوا: وَمَا حِلَاوَةُ الْعِبَادَةِ؟ قَالَ: «التَّوَاضُّعُ»^(٧)، وقال ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وَصَغَارٌ»^(٨).

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: إنَّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال: انتعش رفعك الله، وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض وقال اخسأ خسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى إنه لأحققر عندهم من الخنزير. وقال جرير بن عبد الله: انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه، ثم إنَّ

(١) حديث «إذا هدى الله عبدا للإسلام وحسن صورته .. الحديث». أخرجه الطبراني موقوفا على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودي مختلف فيه.

(٢) موضوع: حديث «أربع لا يعطيهن الله إلا من يحب: الصمت». أخرجه الطبراني والحاكم من حديث أنس «أربع لا يصبن إلا بعجب الصمت هو أول العباداة والتواضع وذكر الله وقلة الشيء» قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان يروي الموضوعات ثم روى له هذا الحديث. [انظر ضعيف الجامع: ٧٦٤، ضعيف الترغيب: ١٧١١، الضعيفة: ١٩٥٨].

(٣) موضوع: حديث ابن عباس «إذا تواضع العبد رفع الله رأسه إلى السماء السابعة». أخرجه البيهقي في الشعب نحوه وفيه زمة بن صالح ضعفه الجمهور. [انظر ضعيف الجامع: ٤٤٠].

(٤) ضعيف جداً: حديث «إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة .. الحديث». أخرجه في الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جداً ورواه ابن عدي من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياصي وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف. [انظر ضعيف الجامع: ٢٥١٥، الضعيفة: ٣٤٢٤].

(٥) [ضعيف]: حديث: كان يطعم فجاء رجل أسود به جدري فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه. لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم. [أبو داود: ٣٩٢٥، وهو ضعيف، وانظر ضعيف الجامع: ٤١٩٥، الضعيفة: ١١٤٤].

(٦) حديث «إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه». غريب.

(٧) حديث «ما لي لا أرى عليكم حلاوة العباداة؟ قَالُوا: وَمَا حِلَاوَةُ الْعِبَادَةِ؟ قَالَ «التَّوَاضُّعُ». غريب أيضا.

(٨) حديث «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وَصَغَارٌ». غريب أيضا.

الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي، فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع في الدنيا رفعه الله يوم القيامة. يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم بعضًا في الدنيا. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع، وقال يوسف بن أسباط: يجزي قليل الورع من كثير العمل ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد. وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته. وقال ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عن من فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل. وقال قتادة: من أعطي مالا أو جمالا أو ثيابا أو علما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة. وقيل: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك. وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقاً من النار يمد به إن شاء الله أو يتجاوز عنه. وقيل لعبد الملك بن مروان: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصره عن قوّة. ودخل ابن السماك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت فقال: يا أمير المؤمنين إن امرأ آتاه الله جمالا في خلقته وموضعا في حسبه وبسط له في ذات يده ففعل في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله، فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده. وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين. وقال بعضهم: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة.

روي أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن: أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما إلا رأيت له عليك فضلا. وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شمخت الجبال وتطاوت وتواضع الجودي لرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه. وقال أبو سليمان: إن الله عز وجل اطلع على قلوب آدميين فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام. وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات: لم أشك في الرحمة لولا أنني كنت معهم إنني أخشى أنهم حرموا بسببي. ويقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه. وقال زياد النمري: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر. وقال مالك بن دينار: لو أن مناديا ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رحلا والله ما كان

أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوّة أو سعي قال: فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: بهذا صار مالك مالكا. وقال الفضيل: من أحب الرئاسة لم يفلح أبداً. وقال موسى بن القاسم: كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت: يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا، فبكى ثم قال: ليتني لم أكن سبب هلاككم، قال: فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: إنّ الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل. وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له: ما أنت؟ وكان هذا دأبه وعادته، فقال: أنا النقطة التي تحت الباء فقال له الشبلي: أباد الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعاً. وقال الشبلي في بعض كلامه: ذلي عطل ذل اليهود. ويقال: من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب. وعن أبي الفتح بن شخرف قال: رأيت علي ابن أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له: يا أبا الحسن عظمي، فقال لي: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل. وقال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه. وقال أبو يزيد: ما دام العبد يظنّ أنّ في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فليل له: فمتى يكون متواضعاً؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه، وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعمي عند نفسي ما قدروا عليه. وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع. وقال يحيى بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع، والسفيه إذا تنسك تعاضم. وقال يحيى بن معاذ: التكبر على ذي التكبر عليك بما له تواضع. ويقال: التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح. ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل.

وقال أبو علي الجوزجاني: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيراً لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدر كها التواضع مع نصرة الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدر كتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدر كتها القناعة مع عون الله عز وجل.

وعند الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولا أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ زَعِيمٌ الْقَوْمِ أَرْدَلُهُمْ»^(١)، ما تكلمت عليكم. وقال الجنيد أيضاً:

٢٠٠ بيان حقيقة الكبر وأفته.

(١) ضعيف: حديث «يكون في آخر الزمان زعيم القوم أردلهم». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة «إذا اتخذ الفيء دولا... الحديث» وفيه «كان زعيم القوم أردلهم... الحديث» وقال غريب وله [الترمذي: ٢٢١١، وهو ضعيف، انظر ضعيف الجامع: ٢٨٧] من حديث علي بن أبي طالب «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل

التواضع عند أهل التوحيد تكبر، ولعل مراده أنّ التواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها أو يرفعها.

وعن عمرو بن شيبه قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس، قال: ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمله فقال لي: ما لك تنظر إليّ؟ فقلت له: شبهتك برجل رأيته بمكة، ووصفت له الصفة، فقال له: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس. وقال المغيرة: كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبه الأمير وكان يقول إن زماناً صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء. وكان عطاء السلمي إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض، وقال هذا من أجلي يصيبكم، لو مات عطاء لاستراح الناس. وكان بشر الحافي يقول: سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم. ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال: أعطاك الله ما ترجوه، فقال إنّ الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة؟ وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوماً فقال سلمان: لكنني خلقت من نطفة قدرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتي الميزان فإن نقل فأنا كرههم وإن خف فأنا لئيم. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع. نسأل الله الكريم حسن التوفيق.

بيانه حقيقة الكبر وآنته:

اعلم أنّ الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر. فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح. واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر. فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعي متكبراً عليه ومتكبراً به، وبه ينفصل الكبر عن العجب، كما سيأتي، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصوّر أن يكون معجباً، ولا يتصوّر أن يكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاث يحصل فيه خلق الكبر، لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه،

بها البلاء، فذكر منها «وكان زعيم القوم أرذلهم» [الترمذي: ٢٢١٠، وانظر ضعيف الجامع: ٦٠٨، ضعيف الترغيب: ١٤٠٧] ولأبي نعيم في الحلية من حديث حذيفة «من اقترب الساعة أثنان وسبعون خصلة» فذكرها منها وفيهما فرج بن فضالة ضعيف. [وهو ضعيف أيضاً، انظر الضعيفة: ١١٧١].

فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك، فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبير. ولذلك قال النبي ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْحَةِ الْكِبْرِيَاءِ» (١)، وكذلك قال عمر: أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا، للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح. فكان الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين، وهو الاستعظام، كبير وانتفخ وتعزز.

فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضًا عزة وتعظماً، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] قال: عظمة لم يبلغوها، ففسر الكبير بتلك العظمة. ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبراً، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدرأه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم مائلاً بين يديه إن اشتد كبره، فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته، فإن كان دون ذلك فيأنف من مساواته وتقدم عليه في مضائق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأ بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول، وإن وعظ عنف في النصيح، وإن رد عليه شيء من قوله غضب وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً.

والأعمال الصادرة عن خلق الكبير كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة. فهذا هو الكبير وأفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم أفته، وقد قال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ؟» (٢) وإنما صار حجاً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصيح وفيه العز، ولا يسلم من الأزدرأ بالناس ومن اغتياهم وفيه العز. ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه. والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة. وشر أنواع الكبير ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبير

(١) حديث «أعوذ بك من نفخة الكبرياء». تقدم فيه.

(٢) حديث «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر». تقدم فيه. [مسلم: ٩١].

والمتكبرين. قال الله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ بَاسِطًا أَيْدِيَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] ثم قال: ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَمَنْ مَوَى الْمَكْتَبِينَ﴾ [الزمر: ٧٢] ثم أخبر أن أشد أهل النار عذاباً أشدهم عتياً على الله تعالى فقال: ﴿ثُمَّ لَنَزَعْتُمْ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْدِيَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِينًا﴾ [مريم: ٦٩] وقال تعالى: ﴿قَالَتِ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ عَنَّا جَهَنَّمَ لَنُكْفِرَنَّ بِكُمْ وَنَجْعَلَ لَكُم مِّنَ الْعَذَابِ ذِكْرًا﴾ [الأنعام: ١٤٦] قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت. وقال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها. ولذلك قال المسيح عليه السلام: إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر، ألا ترون أن من شمخ برأسه إلى السقف شجوه، ومن طأطأ أظله وأكنه. فهذه مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة، ولذلك ذكر رسول الله ﷺ جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال: ﴿مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ﴾^(١)

بإثبات المتكبر عليه ودرهاته وإقسامه وثمرات الكبر فيه:

اعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً، فتارة يتكبر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق، فإذا تكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام:

الأول: التكبر على الله، وذلك هو أفحش أنواع الكبر، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطفيان مثل ما كان من نمرود، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء، وكما يحكى عن جماعة من الجهلة. بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره، فإنه لتكبره قال: أنا ربكم الأعلى، إذ استنكف أن يكون عبداً لله، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [عنبر: ٦٠] وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] الآية. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَاجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

القسم الثاني: التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن

(١) صحيح: حديث «الكثير: من سفه الحق وغمص الناس». أخرجه [مسلم: ٩١] من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال «بطر الحق وغمط الناس» ورواه الترمذي فقال «من بطر الحق وغمص الناس» وقال حسن صحيح [الترمذي: ١٩٩٩، وهو صحيح، انظر غايه المرام: ١١٥]، ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ المصنف، ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريحانة هكذا. [وهو صحيح، انظر الصحيحة: ١٣٤، ١٦٢٦، صحيح الأدب المفرد: ٥٤٨].

الانقياد وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل، كما حكى الله قولهم: ﴿أَتَوْتِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقولهم: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [البراهيم: ١٠]. ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمُ إِنَّكُمْ لِرِجَالِكُمْ لَخَيْرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَتِيكَةُ أَوْ نُنزِلُ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] وقال فرعون فيما أخبر الله عنه: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مَقَرَّنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣] وقال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا هُوَ وَحُوتُهُمْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصاص: ٣٩] فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا. قال وهب: قال له موسى عليه السلام أمن ولك ملكك، قال: حتى أشاور هامان، فشاور هامان فقال هامان: بينما أنت رب يعبد إذ صرت عبد تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام. وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال قتادة: عظيم القرين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي، طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبي إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا؟ فقال تعالى: ﴿أَمْ هُمْ يَقِيمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال الله تعالى: ﴿لِيَقُولُوا أَهْلَوْلَاءَ مِن آتَىٰ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيِّنَاتٍ﴾ [الأنعام: ٥٣] أي استحقاذا لهم واستبعادا لتقدمهم. وقالت قريش لرسول الله ﷺ كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقهم، وتكبروا عن مجالستهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] ^(١) ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَمُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٢] قيل: يعنون عمارا وبلايا وصهيبا والمقداد رضي الله عنهم، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة، فجهل كونه محققا، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبرا عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٩] وقال: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَقِنْتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَظُلُومًا﴾ [النمل: ١٤] وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

القسم الثالث: التكبر على العباد، وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحققر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرفهم ويأنف عن مساواتهم، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضا عظيم من وجهين:

(١) صحيح: حديث قالت قريش لرسول الله ﷺ كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء؟ .. الحديث، في نزول قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] إلى قوله ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ [الأنعام: ٥٢]. أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص إلا أنه قال: «فقال المشركون» وقال ابن ماجه: «قالت قريش». [مسلم: ٢٤١٣، ابن ماجه: ٤١٢٨].

أحدهما : أن الكبير والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبير؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بحلاله، ومثاله: أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره، فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزي والنكال وما أشد استجراؤه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: «العظمة لأزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته». أي إنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي، وإذا كان الكبير على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه، إذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويرفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره، وإن لم يبلغ درجته من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه، فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه. نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون، هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك.

الوجه الثاني: الذي تعظم به رذيلة الكبير أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره؛ لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله، وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِنَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَمَلِكٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَكُلٌّ مِّنَ الْغُلَامِ وَالْإِنْفِاحِ لَا يَلِغْتَمُ الْحَقَّ إِذَا ظَفَرَ بِهِ فَقَدْ شَارَكَهُمْ فِي هَذَا الْخَلْقِ، وَكَذَلِكَ يَحْمَلُ ذَلِكَ عَلَى الْأَنْفَةِ مِنْ قَبُولِ الْوَعظِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال: ﴿إِنَّا نَرَىٰ وَوَلَانَا إِلَهُ رَبُّنَا﴾ [البقرة: ١٥٦] قام رجل يأمر بالمعروف فقتل، فقام آخر فقال: تقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فقتل المتكبر الذي خالفه والذي أمره كبراً.

وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثماً إذا قيل اتق الله قال: عليك نفسك وقال ﷺ لرجل: «كُلَّ بِئِيمِينِكَ» قال: لا أستطيع، فقال النبي: «لَا اسْتَطَعْتَ» فما منعه إلا كبره، قال: فما رفعها بعد ذلك ^(١) أي اعتلت يده. فإذا تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله، وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا، وما حكاها من أحواله إلا ليعتبر به، فإنه قال: أنا خير منه،

(١) صحيح: حديث: قال لرجل «كل يمينك» قال: لا أستطيع قال «لا استطعت» فما منعه إلا كبره، قال. فما رفعها بعد ذلك. أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع. [مسلم: ٢٠٢١].

وهذا الكبر بالنسب لأنه قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فحملة ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله تعالى به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال: يا رسول الله إنني امرؤ قد حجب إليّ من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو؟ فقال ﷺ: «لا وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ»^(١) وفي حديث آخر: «مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ»^(٢) وقوله: «وَعَمَصَ النَّاسَ» أي ازدراهم واستحققهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه. وهذا الآفة الأولى: «وسفه الحق» هو رده وهي الآفة الثانية، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله.

بيانات ما به التكبر:

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال. وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار. فهذه سبعة أسباب.

الأول: العلم، وما أسرع الكبر إلى العلماء ولذلك قال ﷺ: «آفةُ العِلْمِ الخِيَلَاءُ»^(٣)، فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم يستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحققر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم ويستجهلهم ويتوقع أن يبدأه بالسلام، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو ردّ عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعه عنده ويبدأ عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبده أو أجراءه، وكان تعليمه العلم صنيعه منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم، هذا فيما يتعلق بالدنيا. أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وهذا بأن يسمى

(١) صحيح: حديث: قول ثابت بن قيس بن شماس إنني امرؤ قد حجب إلي من الجمال ما ترى.. الحديث «وفيه الكبر من بطر الحق وغمص الناس». أخرجه مسلم والترمذي وقد تقدم قبله بحديثين. [مسلم: ٩١ بلفظ: «غمط»، الترمذي: ١٩٩٩].

(٢) صحيح: حديث «الكبر من سفه الحق وغمص الناس». تقدم معه. [انظر الصحيحة: ١٣٤، ١٦٢٦].

(٣) حديث «آفة العلم الخيلاء». قلت: هكذا ذكره المصنف والمعروف «آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء» هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسند ضعيف. [وهو موضوع، انظر ضعيف الجامع: ٩، الضميمة: ١٣٠٢] وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس «آفة الجمال الخيلاء» وفيه الحسن بن الحميد الكوفي: لا يُدرى من هو، حدث عن أبيه بحديث موضوع؛ قاله صاحب الميزان. [موضوع، انظر السابق].

جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربّه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه ، كما سيأتي في طريق معالجة الكبير بالعلم ، وهذا العلم يزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً، ويقتضي أن يرى كل الناس خيراً منه لعظم حجة الله عليه بالعلم، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم. ولهذا قال أبو الدرداء: من ازداد علماً ازداد وجعاً وهو كما قال.

فإن قلت: فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبيراً وأمثاً؟

فاعلم أن لذلك سببين :

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [ناطر: ٢٨] فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات، فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلاً بها كبيراً ونفاقاً، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذه تورث التواضع غالباً.

السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سييء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهديب نفسه وتركية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم ، أي علم كان ، صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره. وقد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعمومها فيزداد المرّ مرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبيراً والمتواضع تواضعاً، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبيراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً، فالعلم من أعظم ما يتكبر به، ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿ وَأَنْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وقال عز وجل: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضْنَا مِنْ حَوَاكِ ﴾ [ال عمران: ١٥٩] ووصف أوليائه فقال: ﴿ أَدْلُوْهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضُوا عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] وكذلك عليه السلام قال فيما رواه العباس رضي الله عنه: «يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا؟ ثم التفت إلى أصحابه وقال: «أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار»^(١). ولذلك قال عمر

(١) صحيح دون قوله: «لا يجاوز حناجرهم»: حديث العباس «يكون قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا .. الحديث». أخرجه ابن المبارك في الزهد والرفائق. [انظر صحيح الترمذي: ١٣٥، الصحيحة: ٣٢٣٠].

رضي الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم. ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال: إنه الذبح، واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال: إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا. وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال: لتتمسن إمامًا غيري أو لتصلن وحدانا فإنني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني. فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة؟ فما أعز على بسيط الأرض عالمًا يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عن العلم وخيلاؤه، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلًا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله، لو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري إلينا سيرته وسجيته، وهيهات فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم؟ فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد انقضوا في القرن الأول ومن يليهم، بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضًا إما معدوم وإما عزيز. ولولا بشارة رسول الله ﷺ بقوله: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مَنْ تَمَسَكَ فِيهِ بِعُشْرِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ نَجَا»^(١)، لكان جديرًا بنا أن نفتحم والعباد بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا، ومن لنا أيضًا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه، وليتنا تمسكنا بعشر عشره. فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله.

الثاني: العمل والعبادة، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

أما في الدنيا: فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ، إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء، وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق.

وأما في الدين: فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيًا وهو الهالك تحقيقًا، مهما رأى ذلك، قال ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمْ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسَ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»^(٢)، وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف؟ ويكفيه شرًا احتقاره لغيره. قال ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ شَرًّا أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»^(٣)، وكم من الفرق بينه وبين من يحبه الله ويعظمه لعبادته ويستعظمه، ويرجو له ما

(١) صحيح بلفظ: «بعشر ما يعرف»: حديث «سأيتي على الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم عليه نجا». أخرجه أحمد من رواية رجل عن أبي ذر. [انظر الصحيحة: ٢٥١٠].

(٢) صحيح: حديث «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. [مسلم: ٢٦٢٣].

(٣) صحيح: حديث «كفى بالمرء شرًا أن يحقر أخاه المسلم». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ «امرؤ من الشر». [مسلم: ٢٥٦٤].

لا يرجوه لنفسه، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالذنو منه وهو يتمقت إلى الله بالتزهد والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل وما أجدره إذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال كما روي أن رجلاً في بني إسرائيل كان يقال له: خليع بني إسرائيل، لكثرة فساده، مؤ برجل آخر يقال له عابد بني إسرائيل، وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلست إليه لعل الله يرحمني فجلس إليه فقال العابد: أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل فكيف يجلس إلي؟ فأنف منه وقال له: قم عني فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان: مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد. وفي رواية أخرى: فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع.

وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم، فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وذل خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب. وكذلك روي أن رجلاً في بني إسرائيل أتى عابداً من بني إسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال: ارفع فوالله لا يغفر الله لك^(١)، فأوحى الله إليه أيها المتألي بل أنت لا يغفر الله لك، وكذلك قال الحسن: وحتى أن صاحب الصوف أشد كبراً من صاحب المطرّز الخبز، أي أن صاحب الخبز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل له، وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضاً قلما ينفك عنها كثير من العباد، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له، ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله، ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده، وهو جهل وجمع بين الكبير والعجب واغترار بالله وقد ينتهي الحمق والغباء ببعضهم إلى أن يتحدّى ويقول: سترون ما يجري عليه؟ وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة، ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين.

وأما الأكياس من العباد: فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كانت تهب ريح أو تقع صاعقة: ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ولو مات عطاء لتخلصوا. وما قاله الآخر بعد

(١) حديث «الرجل من بني إسرائيل الذي وطئ على رقبته عابد من بني إسرائيل وهو ساجد فقال: ارفع فوالله لا يغفر الله لك.. الحديث». أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للمعاصي «والله لا يغفر الله لك أبداً» وهو بغير هذا السياق وإسناده حسن. [أبو داود: ٤٩٠١، وهو صحيح، انظر صحيح الجامع: ٤٤٥٥].

انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم، فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتقي الله ظاهرًا وباطنًا، وهو رجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه، وذلك ربما يضم من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة للشيطان به، ثم إنه يمتن على الله بعمله. ومن اعتقد جزمًا أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله، فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، ولذلك روي أن رجلاً ذكر بخير للنبي ﷺ فأقبل ذات يوم فقالوا: يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك، فقال: «إني أرى في وجهه سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ»، فسلم ووقف على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ حَدَّثْتُكَ نَفْسَكَ أَنْ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَفْضَلُ مِنْكَ» قال: اللهم نعم^(١)، فرأى رسول الله ﷺ بنور النبوة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه. وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله.

لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات

الدرجة الأولى: أن يكون الكبر مستقرًا في قلبه يرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أن يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيرًا من نفسه، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية.

الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران وأظهار الإنكار على من يقصر في حقه، وأدنى ذلك في العالم أن يصغر خده للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقدر لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين أو الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصعر ولا في الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتى يضم؛ إنما الورع في القلوب، قال رسول الله ﷺ: «التَّقْوَى هُنَا» وأشار إلى صدره^(٢). فقد كان رسول الله ﷺ: أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقًا وأكثرهم بشرًا وتبسًا وانسباطًا^(٣)، ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ: يعجبني من القراء كل طليق مضحك، فأما الذي تلقاه يبشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه، فلا أكثر الله من المسلمين مثله. ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالًا ممن هو في الرتبة الثالثة وهو

(١) حديث: أن رجلاً ذكر بخير للنبي ﷺ فأقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال «إني أرى في وجهه سفعة من الشيطان» فسلم ووقف على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: «أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ حَدَّثْتُكَ نَفْسَكَ أَنْ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَفْضَلُ مِنْكَ» قال: اللهم نعم. أخرجه أحمد والبخاري والدارقطني من حديث أنس.

(٢) صحيح: حديث «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم. [مسلم: ٢٥٦٤].

(٣) ضعيف: حديث «كان أكرم الخلق وأتقاهم .. الحديث». تقدم في كتاب أخلاق النبوة. [انظر ضعيف الجامع: ٤٣٨٦، الضميمة: ٤١٨٥].

الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعو إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لقلبه الغير في العلم والعمل.

أما العابد، فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد. من هو وما عمله ومن أين زهده؟ فيطول اللسان فيهم بالتقصص، ثم يثني على نفسه ويقول: إني لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن في كل يوم، وفلان ينام سحرًا ولا يكثر القراءة، وما يجري مجراه، وقد يزكي نفسه ضمناً فيقول: قصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض، أو ما يجري مجراه، يدعي الكرامة لنفسه. وأما مباهاة: فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي، وأن كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر له قوته وعجزهم، وكذلك يشتد في العبادة خوفاً من أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله.

وأما العالم، فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلاناً وفلاناً، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه. وأما مباهاة: فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل، كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ، وحفظ العلوم الغربية ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدھا حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه.

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كثير»^(١)، كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله ﷺ يقول: إنه من أهل النار؛ وإنما العظيم من خلا عن هذا، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر، والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له: إن لك عندنا قدرًا ما لم تر لنفسك قدرًا فإن رأيت لها قدرًا فلا قدر لك عندنا. ومن لم يعلم هذا في الدين فاسم العالم عليه كذب، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرًا. فهذا هو التكبر بالعلم والعمل.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم، وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره: يا نبطي ويا هندي ويا أرمني من أنت ومن أبوك؟ فأنا فلان ابن فلان، وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إلي؟ ومع مثلي تتكلم؟ وما يجري مجراه. وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحاً وعاقلاً، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور

(١) صحيح: حديث «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كثير». تقدم. [مسلم: ٩١].

بصيرته وترشح منه كما روي عن أبي ذر أنه قال: قاوت رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء فقال النبي ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ طَفُّ الصَّاعِ طَفُّ الصَّاعِ لَيْسَ لِابْنِ الْبَيْضَاءِ عَلَيَّ ابْنِ السُّودَاءِ فَضْلٌ»^(١)، فقال أبو ذر رحمه الله: فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي. فانظر كيف نبهه رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل؟ وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخصص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذلل؟ ومن ذلك ما روي أن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك؟ فقال النبي ﷺ: «افْتَخَرَ رَجُلَانِ عِنْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ أَحَدُهُمَا أَنَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ حَتَّى عَدَّ تِسْعَةَ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قُلْ لِلَّذِي افْتَخَرَ بِلِ التَّسْعَةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ»^(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «لَيَدْعُنَّ قَوْمَ الْفَخْرِ بِأَبَائِهِمْ وَقَدْ صَارُوا فَحْمًا فِي جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلَانِ الَّتِي تَذْرِفُ بِأَنَافِهَا الْقَدْرَ»^(٣).

الرابع: التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والثلث والغيبة وذكر عيوب الناس، ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخلت امرأة على النبي ﷺ فقلت بيدي هكذا أي أنها قصيرة، فقال النبي ﷺ: «قَدِ اغْتَبَيْهَا»^(٤)، وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر، فكانها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت.

الخامس: الكبر بالمال؛ وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم وبين التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومرائبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له: أنت مكذ ومسكين وأنا لو أردت لا شترت مثلك واستخدمت من هو فوقك، ومن أنت؟ وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك؟ وأنا أنفق في اليوم ما

(١) صحيح بغير هذا السياق: حديث أبي ذر: قاوت رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء .. الحديث. [وهو صحيح من حديث عتبة بن عامر بلفظ: إن سابكم هذه وليست بمساب على أحد، وإنما أنتم ولد آدم لم تملؤوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو عمل صالح ... انظر صحيح الترمذي: ٢٩٦٢، الصحيحة: ١٠٣٨] أخرجه ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن النبي ﷺ قال له «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى». [وهو صحيح لغيره وانظر صحيح الترمذي: ٢٩٦٢، صحيح الجامع: ١٥٠٥].

(٢) حديث «إن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك؟ .. الحديث». أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه أحمد موقوفاً على معاذ بقصة موسى فقط.

(٣) حسن صحيح: حديث «ليدعن قوم الفخر بأبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تذرف بأنافها القدر». أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث أبي هريرة. [أبو داود: ٥١١٦، الترمذي: ٣٩٥٥، وانظر صحيح الجامع: ٥٤٨٢، صحيح الترمذي: ٢٩٢٢].

(٤) صحيح بلفظ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» بدل قوله: «قد اغتبتها»: حديث عائشة: دخلت امرأة على النبي ﷺ فقلت بيدي هكذا، أي أنها قصيرة فقال النبي ﷺ: «قد اغتبتها». تقدم في آفات اللسان. [انظر صحيح الجامع: ٥١٤٠، صحيح الترمذي: ٢٨٣٤].

لا تأكله في سنة؟ وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقير، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى، واليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] حتى أجابه فقال: ﴿إِن تَرَىٰ أَنَا أَقَلُّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿١٧﴾ فَصَمْنِي رَبِّهِ أَنْ يُؤَيِّنَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصَبِّحُ صَوْبِيًا زَلْفًا ﴿١٨﴾ أَوْ يُصَبِّحُ مَاؤَهَا غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَمَّ طَلْبًا﴾ [الكهف: ٣٩-٤١] وكان ذلك منه تكبراً بالمال والولد، ثم بين الله عاقبة أمره بقوله: ﴿يَلْتَمِئْ لِمَ أَشْرَكَ بِرَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخباراً عن تكبره ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصر: ٧٩] .

السادس : الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع : التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان والعشيرة والأقارب والبنين، ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود، وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين. وبالجملة، فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به، حتى إن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين؛ لأنه يرى ذلك كمالاً فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا نكالاً، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئاً فيه. فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض، فيتكبر من يدلي بشيء منه على من لا يدلي به، أو على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده. وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى، كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده في نفسه. نسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير.

بهايات البراءة على التكبر لأسبابه المسيئة له:

اعلم أن الكبر خلق باطن، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة، وينبغي أن تسمى تكبراً ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالتكبر، كما سيأتي معناه، فإنه إذا أعجب بنفسه ويعلمه ويعمله أو بشيء من أسبابه استعظم نفسه وتكبر.

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبر، وسبب في المتكبر عليه، وسبب فيما يتعلق بغيرهما.

أما السبب الذي في المتكبر فهو: العجب، والذي يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد، والحسد. والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب، والحقد، والحسد، والرياء.

أما العجب: فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر يثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال.

وأما الحقد: فإنه يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بغضه، فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقاً للتواضع، فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له؟ ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته وعلى الأنفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد في التقدم عليه، وإن علم أنه لا يستحق ذلك، وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه، فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه، ولا يسأله عما هو جاهل به.

وأما الحسد: فإنه أيضاً يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد، ويدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشتاقي إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً وبغياً عليه؟ فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

وأما الرياء: فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين، حتى إن الرجل لينظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسبة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه، فيكون باعته على التكبر عليه الرياء المجرد، ولا خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه. وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث، وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذباً وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويرتفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطناً بأنه لا يستحق ذلك، ولا كبير في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين، وكأن اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار، وهو إن سمي متكبراً فلاجل التشبه بأفعال الكبير. نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم.

بيان اضمالات المتراضعين ومهامع ما يظهر فيه اثر التراضيع والتكبر:

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعر في وجهه ونظره شزراً وإطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبخرته وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض. فمنها: التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه. وقد قال علي كرم الله وجهه: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فليُنظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام. وقال أنس: لم يكن

شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك^(١).

ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه. قال أبو الدرداء: لا يزال العبد يزداد من الله بعدًا ما مشى خلفه، وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبده، إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة. ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال: ما يبقي هذا من قلب العبد، وكان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم^(٢). إما لتعليم غيره أو لينفي عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنيين^(٣).

ومنها: أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع. روي أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم: أن تعال فحدثنا، فجاء سفيان فقيل له: يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه؟.

ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. قال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد فمس فخذي فخذه فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبايرة وإني لا أعرف رجلاً منكم شرًّا مني؟ وقال أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء^(٤).

ومنها: أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر: دخل رجل ، وعليه جدري قد تقشر ، على رسول الله ﷺ وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه^(٥) ، فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه ، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذومًا ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته.

٢٠٠ بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

(١) صحيح: حديث أنس: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك. تقدم في آداب الصحبة وفي أخلاق النبوة. [انظر الصحيحة: ٣٥٨].

(٢) منكر: حديث: كان في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدًا: أنه خرج يمشي إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسل عن ذلك فقال: «إني سمعت خفق نعالكم فأشفت أن يقع في نفسي شيئًا من الكبر» وهو منكر، فيه جماعة ضعفاء.

(٣) حديث: إخراج الثوب الجديد في الصلاة وإبداله بالخليع قلت: المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق أو نزع الخميصة وليس الأنبيانية، وكلاهما تقدم في الصلاة. [حديث لبس الأنبيانية: في البخاري: ٣٧٣١، مسلم: ٥٥٦].

(٤) صحيح: حديث أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه .. الحديث. تقدم في آداب المعيشة. [انظر صحيح ابن ماجه].

(٥) حديث: الرجل الذي به جدري وإجلسه إلى جنبه. تقدم قريبا.

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلًا في بيته، والتواضع خلافه: روي أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبه الغلام؟ فقال: هي أول نومة نامها، فقام وأخذ البطة وملاً المصباح زيتاً فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء وخير الناس من كان عند الله متواضعاً.

ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويتحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين، وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك^(١)، وقال علي كرم الله وجهه: لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله، وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير يحمل سطلاً له من خشب إلى الحمام. وقال ثابت بن أبي مالك: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان، فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك أو عن الأصبع بن نباتة قال: كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقاً لحماً في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة، يدور في الأسواق حتى دخل رحله. وقال بعضهم: رأيت علياً رضي الله عنه قد اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته، فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

ومنها: اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع، وقد قال النبي: «البِذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢)، فقال هارون: سألت معنًا عن البذاذة فقال: هو الدون من اللباس. وقال زيد بن وهب: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من آدم، وعوتب علي كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب. وقال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء في القلب. وقال طاوس: إنني لأغسل ثوبي هذين فأنكر قلبي ما داما نقيين. ويروى أنّ عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشتري له الحلة بألف دينار فيقول: ما أجودها لولا خشونة فيها! فلما استخلف كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما أجوده لولا لينه فقيل له: أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال إن لي نفساً ذواقه وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطبقات تاقت إلى ما عند الله عز وجل. وقال سعيد بن سويد: صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة، وقال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ زِينَةَ اللَّهِ وَوَضَعَ ثِيَابًا حَسَنَةً تَوَاضَعًا لِلَّهِ وَاتِّبَاعًا لِمَرْضَاتِهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخِرَ لَهُ عَقْبَرِيَّ الْجَنَّةِ»^(٣).

(١) حديث: حملة متاعه إلى بيته. أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله وتقدم.
 (٢) صحيح: حديث «البذاذة من الإيمان». أخرجه أبو داود وابن ماجه حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم.
 [أبو داود: ٤١٦١، وانظر صحيح الجامع: ٢٨٧٩، الصحيحة: ٣٤١، والبذاذة يعني التفضيف].
 (٣) حديث «من ترك زينة الله ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله» أخرجه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس «من ترك زينة لله... الحديث» وفي إسناده نظر.

فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء القلب. وقد سئل نبينا عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال ﷺ «لَا وَلَكِنَّ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ» (١) فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ وهو الذي عرفه رسول الله ﷺ من حال ثابت بن قيس إذ قال: إني امرؤ حبيب إلي من الجمال ما ترى (٢)؛ فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر، وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع. وعلامة المتكبر أن يطلب التجميل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان. وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته وحتى في سنوره، فذلك ليس من التكبر. فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أن قوله: خيلاء القلب، يعني قد تورث خيلاء في القلب، وقول نبينا ﷺ «إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْكِبَرِ» يعني أن الكبر لا يوجب، ويجوز أن لا يوجه الكبر ثم يكون هو مورثاً للكبر. وبالجملة؛ فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحجوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة. وقد قال ﷺ «كُلُّوا وَاشْرَبُوا وَابْتَشُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ سُرْفٍ وَلَا مَخِيلَةٍ» (٣). «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ» (٤) وقال بكر بن عبد الله المزني: البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية. وإنما خاطب بهذا قوماً يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح. وقد قال عيسى عليه السلام: ما لكم تأتونني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري؟ البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية.

ومنها : أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذى وأخذ حقه، فذلك هو الأصل. وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد. وبالجملة، فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ فيه فينبغي أن يقتدى به، ومنه ينبغي أن يتعلم. وقد قال أبو سلمة: قلت لأبي سعيد الخدري ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي كل لله واشرب لله والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباحة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج

(١) صحيح : حديث: سئل عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر؟ فقال «لا». الحديث تقدم غير مرة. [انظر الصحيحة: ١٣٤، ١٦٢٦، وأصله في مسلم: ٩١].

(٢) صحيح : حديث: إن ثابت بن قيس قال للنبي ﷺ إني امرؤ حبيب إلي الجمال ما ترى. هو الذي قبله سمي فيه السائل وقد تقدم. [انظر صحيح الأدب المفرد: ٤٠٩٢، صحيح أبي داود].

(٣) حسن : حديث «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة». أخرجه النسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. [النسائي: ٢٥٥٩، ابن ماجه: ٣٦٠٥، وانظر صحيح الجامع: ٤٥٠٥، صحيح الترفيب: ٢١٤٥].

(٤) صحيح : حديث «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». أخرجه الترمذي وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضا وقد جعلهما المصنف حديثا واحدا. [الترمذي: ٢٨١٩، وانظر صحيح الجامع: ١٧١٢، الصحيحة: ١٢٩٠].

رسول الله ﷺ في بيته، كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيأ، ويشترى الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه، وينقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير والكبير والصغير، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليس له حلة لمدخله وحلة لمخرجه، لا يستحي من أن يجيب إذا دعي وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دعي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء، هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذي قرى ومسلم، رقيق القلب دائم الإطراق لم يشم قط من شبع ولا يمد يده من طمع، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله ﷺ فقالت: ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله ﷺ لم يمتلىء قط شبعاً ولم يبيت إلى أحد شكوى، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى، وإن كان ليظل جائعاً يلتوي ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتيه بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعّل، وربما بكيت رحمةً له مما أوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: «يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على خالهم وقدموا على ربهم فأكرم ما بهمم وأجزل ثوابهم فأجذبني أشجبي إن ترقت في معيشتي أن يقصر بي ذونهم أياماً يسيرة أحب إلي من أن ينقص حظي غداً في الآخرة وما من شيء أحب إلي من اللخوق بإخواني وأجلائي». قالت عائشة رضي الله عنها: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل^(١).

فما نقل من أحواله يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به، ومن رأى نفسه فوق محله ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشد جهله فلقد كان أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العز في غيره، لما عوتب في بذاذة هيئته عند دخوله الشام. وقال أبو الدرداء: اعلم أن لله عبادةً يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع في غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم

(١) حديث أبي سعيد الخدري وعائشة: قال الخدري لأبي سلمة عالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله ﷺ يعالج في بيته كان يعلف الناضح... الحديث. وفيه: قال أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك عن أبي سعيد فقالت: ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلىء قط شبعاً... الحديث بطوله لم أقف له على إسناد.

لنفسه، وهم أربعون صديقاً أو ثلاثون رجلاً قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه، واعلم يا أخي إنهم لا يلعنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحداً ولا يحرصون على الدنيا، هم أطيب الناس خيراً وألينهم عريكةً وأسخاهم نفساً، علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدرى كيفهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة، قلوبهم تصعد ارتياحاً إلى الله واشتياقاً إليه وقدماً في استباق الخيرات ﴿أُولَئِكَ جَزَبَ اللَّهُ الْآلَ إِنَّا جَزَبَ اللَّهُ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٧] قال الراوي: فقلت: يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد علي من تلك الصفة وكيف لي أن أبلغها؟ فقال: ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا، فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة، ويقدر حبك للآخرة تزهده في الدنيا ويقدر ذلك تبصر ما ينفعلك، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة، واعلم يا ابن أخي أن ذلك في كتاب الله تعالى المنزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] قال يحيى بن كثير: فنظرنا في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته. اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يا رب العالمين فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بيات الطريق في معالجة الكبر والتساب التواضع له:

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان. أحدهما: استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب. الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره. المقام الأول: في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما:

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفته نفسه فهو أيضاً يطول ولكننا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته، وقد قال الله تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (٧٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿٧٨﴾ مِنْ تُطْفَأِ خَلْقَهُ فَعَدَدَهُ ﴿٧٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٨٠﴾ ثُمَّ أَمَانَةً فَأَوْتَمَرَهُ ﴿٨١﴾ ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٨٢﴾ [عبس: ١٧-٢٢] فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه،

فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية. أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً وقد كان في حيز العدم دهوراً بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقدرها إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغته، ثم جعله عظماً، ثم كسا العظم لحماً، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئاً مذكوراً، فما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطن ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سماعه وببكمه قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۗ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ [عبس: ١٨-١٩] ومعنى قوله: ﴿هَلْ أَرَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ۗ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ١-٢] كذلك خلقه أولاً ثم امتن عليه فقال: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠] وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت. وكذلك قال:

﴿مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۗ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣] ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً تراباً أولاً ونطفة ثانياً، وأسمعه بعد ما كان أصم، وبصره بعد ما كان فاقداً للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا أَنَّا خَلَقْنَا مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾ [الروم: ٢٠] فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجود بعد العدم، وحيّاً بعد الموت، وناطقاً بعد البكم، وبصيراً بعد العمى، وقوياً بعد الضعف، وعالماً بعد الجهل، ومهدياً بعد الضلال، وقادراً بعد العجز، وغنياً بعد الفقر؟ فكان في ذاته لا شيء وأي شيء أخس من لا شيء؟ وأي قلة أقل من العدم المحض؟ ثم صار بالله شيئاً. وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضاً ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا. ولذلك امتن عليه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ ۗ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۗ وَإِنَّا كَانُوعَلَىٰ قَلْبِهِ عِلْمٌ كَالْعِلْمِ الَّذِي أَتَىٰ الْبَشَرَ لَئِنَّمَا يَكْفُرُوا بِنِعْمَتِنَا فَظَلَمُوا ۗ إِنَّا نَحْنُ اللَّهُ غَنِيُّ الْإِنْسَانِ فَهُمْ عَلَىٰ عِزَّتِنَا أَهْلٌ لَّعْنَةٍ ۗ وَهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ﴾ [الجن: ١٠-١١] وعرف خسته أولاً فقال: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ نُطْفَةٌ مِنْ مَتْنٍ يَمِينٍ ۗ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ [القيامة: ٣٧-٣٨] ثم ذكر منته عليه فقال: ﴿فَخَلَقَ نَسَوَىٰ ۗ فَعَمَلٌ مِنْهُ الرَّجْوِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۗ﴾ [القيامة: ٣٨-٣٩] ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولاً بالاختراع.

فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على

التحقيق أحسن الإخساء وأضعف الضعفاء؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمع بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم لو أكمله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلب عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة، من المرة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبي رضي أم سخط، فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا خيرًا ولا شرًا، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء ويفعل عنه فلا يفعل عنه، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمله فيجول في أودية الوسواس والأفكار بالاضطرار، فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه، ويشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه، يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه، ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحببه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطرٌ ذليل إن ترك بقي وإن اختطف فني، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره، فأى شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنى يليق الكبير به لو لا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليأمله.

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَا أَنَا فَأَقْبِرُ ﴿١١﴾ ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَشْرُرُ﴾ [عبس: ٢١-٢٢] ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحر كته، فيعود جمادًا كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قدرة كما كان في الأول نطفة منذرة، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميمًا رفاتًا، ويأكل الدود أجزاءه فيبتدىء بحدقتيه فيقلعهما وبخديبه فيقطعهما، ويسائر أجزائه فيصير روثًا في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الإنتان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير ترابًا يعمل منه الكيزان ويعمر منه البنيان، فيصير مفقودًا بعد ما كان موجودًا. وصار كأن لم يكن بالأمس حصيدًا كما كان في أول أمره أمذاً مديدًا، وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك ترابًا. لا بل يحبب به بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة وجمال مسيرة ونجوم منكدره وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر، ويرى صحائف منشورة فيقال له: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ [الإسراء: ١٤] فيقول: وما هو فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقيير وقطمير وأكل وشرب وقيام وعود، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهل إلى الحساب واستعدت للجواب أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعًا من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر

الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال: ﴿يَوَلِّكُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَشْرُهُ﴾ [عبس: ٢٢] فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ما له وللفرح في لحظة واحدة فضلاً عن البطر والأشر؟ فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقي عذاباً، وإن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق. ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى منه في بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة، فمن هذا حاله في العاقبة، إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو، كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلاً؟ وأي عبد لم يذنب ذنباً استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة إلا بالله. أرايت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملاً من الخلق وليس يدري أيغنى عنه أم لا؟

كيف يكون ذله في السجن أفترى أنه يتكبر على من في السجن؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره؟ فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً. فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله ﷺ حتى إنه كان يأكل على الأرض ويقول: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكُلُّ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ»^(١)، وقيل لسلمان. لم لا تلبس ثوباً جديداً؟ فقال: إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوماً لبست جديداً أشار به إلى العتق في الآخرة. ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعاً، وقيل: الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمشول قائماً وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الإنحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، حتى قال حكيم بن حزام: بايعت النبي ﷺ على أن لا أحرز إلا قائماً فبايعه النبي ﷺ، ثم فقهه وكمل إيمانه بعد ذلك^(٢)، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعفة أمروا

(١) ضعيف: حديث: كان يأكل على الأرض ويقول «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد». تقدم في آداب المعيشة. [انظر ضعيف الجامع: ٢٠٥٣، الضميمة: ٣٢١٩].

(٢) صحيح: حديث حكيم بن حزام: بايعت رسول الله ﷺ على أن لا أحرز إلا قائماً. الحديث رواه أحمد

به لتتكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذي يقتضيه التواضع، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقا، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعا، وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر، ولكننا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة.

الأول: النسب فيمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين.

أحدهما: أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فخرت بآباءٍ ذوي شرفٍ لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيئا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟

بل لو كان الذي ينسب إليه حيا لكان له أن يقول: الفضل لي: ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولي؟ أفتري أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس؟ هيهات بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة.

الثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي، فيعرف أباه وجده فإن أباه القريب نطفة قدرة وجدّه البعيد تراب ذليل، وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧-٨] فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حما مسنونا كيف يتكبر؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقدر من المضغة.

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول: افتخر بالقريب دون البعيد، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك، ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعتة؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده؟ فإذا أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفضل تغسل منه الأبدان. فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والداه، فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم أنه ابن هندي حجام يتعاطى القاذورات، وكشفوا له وجه

التلبيس عليه فلم يبق له شك في صدقهم، أفترى أن ذلك يبقي شيئًا من كبره؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره. فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب، إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسه أعضاء أبيه للتراب والدم، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه؟.

السبب الثاني: التكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى الظاهر نظر العقلاء ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم. ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال فإنه وكل به الأقدار في جميع أجزائه:

الرجيع في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطه، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفتين، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلًا عن أن يمسه أو يشمه، كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا في حال توسطه.

وفي أول أمره خلق من الأقدار الشنيعة الصور، من النطفة ودم الحيض، وأخرج من مجرى الأقدار. إذ خرج من الصلب، ثم من الذكر مجرى البول، ثم من الرحم مفيض دم الحيض، ثم خرج من مجرى القدر. قال أنس رحمه الله: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبنا فيقدر إلينا أنفسنا ويقول: خرج أحدكم من مجرى البول مرتين: وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز. ما هذه مشية من في بطنه خراء؟ إذ رآه يتبختر، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه.

ولو ترك نفسه في حياته يومًا لم يتعهدا بالتنظيف والغسل لثارت منه الأتان والأقدار، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملّة التي لا تتعهد نفسها قط. فإذا نظر إنه خلق من أقدار وأسكن في أقدار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقدار لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن وكلون الأزهار في البوادي، فبينما هو كذلك إذ صار هشيماً تذروه الرياح، كيف ولو كان جماله باقياً وعن هذه القبائح خاليًا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح، إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟ كيف ولا بقاء له بل هو في كل حين يتصوّر أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو سبب من الأسباب؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

السبب الثالث: التكبر بالقوة والأيدي، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل، وأنه لو سلبه الذباب شيئًا لم يستنقذه منه وأن بقعة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته،

وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وأن حمى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في مدة. فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقعة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي أن يفتخر بقوته ثم إن قوي الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل، وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم؟.

السبب الرابع والخامس: الغنى وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبير بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم، وكل ذلك تكبير بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم. وهذا أقيح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غلياناً من القدر، فإن تغير عليه كان أذل الخلق، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودي وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً؟ فهذه أسباب ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال، فالتفاخر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك، وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء. ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره.

ومثاله: أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحرّيته واستقلاله وسعة منازلته وكثرة خيوله وعلمانه، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأن أبويه كانا مملوكين له، فعلم ذلك وحكم به الحاكم، فجاء مالكة فأخذه وأخذ جميع ما في يده، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكة ليعرف أن له مالكا، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوباً في منزل قد أحدثت به الحيات والعقارب والهوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقاً في الخلاص ألبتة، أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكمال أم يذل نفسه ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضائه وماله، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك. فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة. فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل، فإنهما كمالان في النفس جذيران بأن يفرح بهما، ولكن التكبر بهما أيضاً نوع من الجهل خفي كما سنذكره.

السبب السادس: الكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل. ولذلك قال كعب الأحبار: إن للعلم طغياناً كطغيان المال. وكذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه:

العالم إذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم. ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم، ولذلك قال ﷺ: «يُؤْتَى بِالْعَالِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْجَمَارُ بِالرَّحَى فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ أَمْرًا بِالْخَيْرِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْتَهَى عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ»^(١)، وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالجمار والكلب فقال عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا النَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَجْعَلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] أراد به علماء اليهود. وقال في بلعم بن باعوراء: ﴿وَأَتَلُّ هَلْبِهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْتَلَخَ مِنْهَا﴾ حتى بلغ ﴿فَسَأَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوتي بلعم كتابًا فأخلد إلى شهوات الأرض أي سكن حبه إليها فمثلته بالكلب: ﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته، ويكفي العالم هذا الخطر فأى عالم لم يتبع شهوته وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطره غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك. وهو كالمملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرًا، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجاهل؟ والعياذ بالله منه. فهذا الخطر يمنع من التكبر، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه، فكيف يتكبر من هذا حاله؟ فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلدني أُمِّي ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة ويقول الآخر: ليتني كنت طيرًا أو كل ويقول الآخر: ليتني لم أك شيئًا مذكورًا كل ذلك خوفًا من خطر العاقبة، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالًا من الطير ومن التراب. ومما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره، ورأى نفسه كأنه شر الخلق.

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمر فشرع فيها، فترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا؟ فأخبره مخبر أن سيده أرسل إليه رسولًا يخرج من كل ما هو فيه عريانًا ذليلًا ويلقيه على بابه في الحر والشمس زمانًا طويلًا، حتى إذا ضاق الأمر عليه وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثم أمر

(١) صحيح بلفظ: «يؤتى بالرجل»: حديث «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه.. الحديث». متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بلفظ «يؤتى بالرجل» وتقدم في العلم. [البخاري: ٣٢٦٧، مسلم: ٢٩٨٩].

به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة، وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف عبديه مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أي الفريقين يكون؟ فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفاعته عند نزول العذاب، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه وبدنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والمعجب والنفاق وغيره، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له إن لك عندي قدرًا ما لم تر لنفسك قدرًا فإن رأيت لنفسك قدرًا فلا قدر لك عندي، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه. وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلًا أو تصور ذلك. وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم، فهذا أيضًا مما يبعثه على التواضع لا محالة.

فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق والمبتدع، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى، وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟ فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكير في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه، إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك، فكم من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين؟ إلا أبا بكر وحده، فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة، وجميع الفضائل في الدنيا تتراد للعاقبة. فإذا من حق العبد أن لا يتكبر على أحد. بل إن نظر إلى الجاهل قال: هذا عصي الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني. وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سئًا قال: هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن، فليس دوام الهداية إليّ، كما لم يكن ابتداءؤها إليّ؟ فيملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته، لا أن يشتغل بخوف غيره، فإن الشفيق بسوء الظن مولع، وشفقة كل إنسان على نفسه. فإذا حبس جماعة في جناية ووعدوا بأن

تضرب رقابهم لم يتفرغوا لتكبير بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر، إذ شغل كل واحد نفسه عن الالتفات إلى هم غيره، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبتة وخطره.

فإن قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض؟ فاعلم أن هذا أمر مشتهر يلتبس على أكثر الخلق، إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقاً جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عنه بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله، كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليمهم؟ وذلك لأن الكبير على المطيع ظاهر كونه شراً والحذر منه ممكن، والكبير على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فإن الغضبان أيضاً يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يبغض، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون.

والذي يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور:

أحدها: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك، فله المنة فيه لا لك، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالث: ملاحظة إيهام عاقبتك، وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسن، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟ فأقول: تغضب لمولاك وسيدك، إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكا، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول: إذا كان للملك غلام وولد هو قرّة عينه، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به، ويغضب عليه. فإن كان الغلام محبباً مطيعاً لمولاه فلا يجد بداً أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه؛ لأن الولد أعز لا محالة من الغلام. فإذاً ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع، فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم، لما سبق لهما من الحسن في الأزل، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون

عنده أقرب منك في الآخرة. فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع. وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يبرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور. فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبة بحكم الأمر.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة، وذلك أيضًا فتنة عظيمة على العباد، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقال ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أذْنِي رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي»^(١)، إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم.

فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر، فيقال له: أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك، وإذا كان هذا الأمر غائبًا عنه لم يجز له أن يحتقر عالمًا بل يجب عليه التواضع له.

فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أذْنِي رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي»؟ فاعلم أن ذلك كان ممكنًا لو علم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هينًا وهو عند الله عظيم وقد مقته به، وإذا كان هذا ممكنًا كان على نفسه خائفًا، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفًا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعه من التكبر بكل حال. فهذا العابد مع العالم، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين، فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنوبًا وأكثر منه عبادةً وأشد منه حياءً لله، وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك. فلا ينبغي أن تتكبر عليه، ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنبًا؛ لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة. نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والزنى، ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ في ذلك شديد عند الله، وربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتًا، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه، وقد كَفَرَ اللَّهُ بِذَلِكَ عنه سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان

(١) صحيح: حديث «فضل العالم على العابد كفضلي على أذني رجل من أصحابي». أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وتقدم في العلم. [انظر صحيح الجامع: ٤٢١٣، صحيح الترهيب: ٨١].

البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً إن كنت مشفقاً على نفسك، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وعذاب غيرك لا يخفف شيئاً من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك.

وقد قال وهب بن منبه: ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال، فعَدَّ تسعة حتى بلغ العاشر فقال: العاشرة وما العاشرة بها شاد مجده وبها علا ذكره، أن يرى الناس كلهم خيراً منه. وإنما الناس عنده فرقتان: فرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شر منه وأدنى. فهو يتواضع للفرقتين جميعاً بقلبه، إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به، وإن رأى من هو شر منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفاً من العقاب ويقول لعل برّ هذا باطن فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خلقاً كريماً بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال، ويرى ظاهره فذلك شر لي. فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها، ثم قال: فحينئذٍ كمل عقله وساد أهل زمانه. فهذا كلامه. وبالجملة فمن جَوَّز أن يكون عند الله شقيّاً وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فما له سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال.

نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيراً من نفسه وذلك هو الفضيلة، كما روي أن عابداً آوى إلى جبل فقيل له في النوم: ائت فلاناً الإسكاف فسله أن يدعو لك. فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار، ويكتسب فيتصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه، فرجع وهو يقول: إن هذا لحسن، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله فأتي في النوم ثانياً فقيل له: ائت فلاناً الإسكاف فقل له: ما هذا الصفار الذي بوجهك؟ فأتاه فسأله فقال له: ما رأيت أحداً من الناس إلا وقع لي: أنه سينجو وأهلك أنا، فقال العابد: بهذه.

والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدؤوب بالإشفاق، فقال تعالى مخبراً عنهم: ﴿يَسْتَحُونَ اللَّيْلَ وَالتَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِي مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل، وينكشف عند خاتمة الأجل، غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب وهو سبب الهلاك. فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك. والتواضع دليل الخوف وهو مسعد، فإذا ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال. فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمّر التواضع وتدعي البراءة من

الكبير وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبيعتها ونسيت وعدّها، فعلى هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبير في النفس.

وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة.

الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تبييه وتعريفه وإخراجه الحق، فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً فليتنق الله فيه ويشتغل بعلاجه. أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه حسرة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبير لا يليق إلا بالله تعالى. وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول: ما حسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتني له بالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها. فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله، ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر، فإن كان ذلك لا يتحمل عليه في الخلوة ويتحمل عليه في الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس، ويذكر القلب بأن منفعة في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق، إلى غير ذلك من أدوية الرياء.

وإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني. فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعاً مهلكان.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله، فبذلك يزايله الكبير وهنأ للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأردال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبير، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج حيث الكبير من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل عليه فهو كبير، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبير.

الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبير أو رياء، فإن كان يتحمل ذلك عليه مع خلوة الطريق فهو كبير، وإن كان لا

يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعلة المهلكة له إن لم تدارك، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]. ويروي عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له يا أبا يوسف: قد كان في غلمانك وبنيك ما يكفيك قال: أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جربها أهي صادقة أم كاذبة؟ وفي الخبر: «من حمل الفاكهة أو الشيء فقد برئ من الكبر»^(١).

الامتحان الخامس: أن يلبس ثياباً بذلة، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر. وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه له مسح يلبسه بالليل، وقد قال عليه السلام: «مَنْ اغْتَقَلَ الْبَيْعِيرَ وَلَيْسَ الصُّوفَ فَقَدْ بَرِيَ مِنَ الْكِبْرِ»^(٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكَلُ بِالْأَرْضِ وَالْبَيْسُ الصُّوفَ وَأَغْقِلُ الْبَيْعِيرَ وَأَلْعَقُ أَصَابِعِي وَأُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ، فَمَنْ رَغِبَ عَنِّي سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٣). وروي أن أبا موسى الأشعري قيل له إن أقواماً يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس. وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فيما يختص بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر؛ فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه.

بيات غايبة الرياضة في خلق التواضع:

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة: فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة، والوسط يسمى تواضعاً. والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع: أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه. والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتحنى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وغدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند الله العدل، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره. فإذا ن سبيله في

(١) ضعيف: حديث «من حمل الشيء والفاكهة فقد برئ من الكبر». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بلفظ «من حمل بضاعته». [انظر ضعيف الجامع: ٥٥٦٧].

(٢) حديث «من اعتقل البعير وليس الصوف فقد برئ من الكبر». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي إسناده القاسم اليمعري ضعيف جدا.

(٣) حديث «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكَلُ بِالْأَرْضِ وَأَلْبَسُ الصُّوفَ .. الحديث». تقدم بعضه ولم أجد بقيته.

اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع، وإن كان يتقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية، فإن خف ذلك وصار بحيث يتقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس، فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن تذلل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم، وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق. والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أنّ الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التقتص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر. والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما لا يعرف ذلك بالشرع والعادة ولنتقصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع.

السطر الثاني من الكتاب في العجب: وفيه بيان ذم العجب وآفاته، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما، وبيان علاج العجب على الجملة، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه.

بيانات ذم العجب وآفاته:

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وستة رسوله . قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرَتْكُمُ فَلََمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥] ذكر ذلك في معرض الإنكار، وقال عز وجل: ﴿وَقُلْنَا أَنَّهُمْ قَدْ كُفَرُوا فَلَم نَمْنَعَهُمْ حُصُونَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَنذَرْتُهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٧] فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْسَبْ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وهذا أيضًا يرجع إلى العجب بالعمل. وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطيء فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه. وقال ﷺ: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مَطَاعٌ وَهَوَى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابٌ مَرُوعٌ يَنْفُسِيهِ»^(١)، وقال ﷺ لأبي ثعلبة، حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال: «إِذَا رَأَيْتَ شَحًّا مَطَاعًا وَهَوَى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابًا كُلَّ ذِي رَأْيٍ بَرَأَيْهِ فَعَلَيْكَ نَفْسُكَ»^(٢). وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين القنوط والعجب. وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتمسّر، والقنوط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى.

٢٥٠ بيان ذم العجب وآفاته

(١) حسن: حديث «ثلاث مهلكات .. الحديث». تقدم غير مرة. [انظر صحيح الجامع: ٣٠٣٩، صحيح الترغيب: ٤٥٣].

(٢) ضعيف: حديث أبي ثعلبة «إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك». أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وقد تقدم. [أبو داود: ٤٣٤١، الترمذي: ٣٠٥٨، وانظر ضعيف الجامع: ٢٣٤٤، ضعيف الترغيب: ١٨٤٦].

فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصله له ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن ههنا جمع بينهما. وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] قال ابن جريج: معناه إذا عملت خيراً فلا تقل عملت. وقال زيد بن أسلم: لا تبروها، أي لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب. ووقى طلحة رسول الله يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه، فكانه أعجبه فعله العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح، ففترس ذلك عمر فيه فقال: ما زال يعرف في طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله ﷺ^(١) والنأو: هو العجب، في اللغة، إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلماً ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس: أين أنت من طلحة؟ قال: ذلك رجل فيه نخوة. فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم؟ وقال مطرف: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أبيت قائماً وأصبح معجباً. وقال ﷺ: «لَوْ لَمْ تَذُنُبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ الْعُجْبُ الْعُجْبُ»^(٢)؛ فجعل العجب أكبر الذنوب. وكان بشر بن منصور من الذين إذا رءوا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة، فأطال الصلاة يوماً ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر، فلما انصرف عن الصلاة قال له: لا يعجبنيك ما رأيت مني، فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه. وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيحياً؟ قالت: إذا ظن أنه محسن، وقد قال تعالى: ﴿لَا يُطْلَؤُا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] والمن نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العجب. فظهر بهذا أن العجب مذموم جداً.

بيان آفة العجب:

اعلم أنّ آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه، كما ذكرناه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى، هذا مع العباد، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقد لها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها، وما يتذكره منها فيستغفره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له. وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب، والمعجب يغتر

(١) صحيح: حديث «وقى طلحة رسول الله ﷺ بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه». أخرجه البخاري من رواية قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ [البخاري: ٤٠٦٣].

(٢) حسن: حديث «لو لم تذنوبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب». أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه سلام ابن أبي الصهباء قال البخاري منكر الحديث. وقال أحمد حسن ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جداً. [انظر صحيح الجامع: ٥٣٠٣].

بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان وأن له عند الله منةً وحقاً بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطاياه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكها، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصيح ناصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه، فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه، وإن كان في أمر ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق. فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات، ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

بيان حقيقة المعجب والإدراك ربهما:

اعلم أنّ العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان.

إحدهما: أن يكون خائفًا على زواله ومشفقًا على تكدر أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب.

والأخرى: أن لا يكون خائفًا من زواله لكن يكون فرحًا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا أيضًا ليس بمعجب.

وله حالة ثالثة: هي العجب وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحًا به مطمئنًا إليه، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه، فمهما غلب على قلبه إنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه.

فإذن العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم. فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقًا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا، واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعادًا يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا إدلالًا بالعمل، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة، وكذلك قد يعطي غيره شيئًا فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجبًا، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَنََّنَّ سَتَكْبُرُ﴾ [المدثر: ٦] أي لا تدل بعملك وفي الخبر: «إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكي وأنت

مدل بعملك^(١)، والإدلال وراء العجب. فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلاً بعمله؛ لأنه لا يعجب من رد دعاء الفاسق، ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك، فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه، والله تعالى أعلم.

بيان علاج المعجب على العملة:

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده، وعلّة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم؛ فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه.

فنعول: الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محلّه ومجرّاه أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوّته؛ فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محلّه ومجرّاه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل، لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تم، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجماله ولا لخدمته، فينبغي أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه؟ ولا ينبغي أن يعجب هو بنفسه. نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول: الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب، فلولا أنه تفتن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرني بها، فيقال: وتلك الصفة أيضًا هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك، من غير وسيلة، أو هي عطية غيره؟ فإن كانت من عطية الملك أيضًا لم يكن لك أن تعجب بها، بل كان كما لو أعطاك فرسًا فلم تعجب به. فأعطاك غلامًا فصرت تعجب به وتقول: إنما أعطاني غلامًا لأنني صاحب فرس فأما غيري فلا فرس له، فيقال: وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معًا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك.

وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة، وهذا يتصور في حق

(١) حديث «إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه .. الحديث. لم أجد له أصلا.

الملوك ولا يتصور في حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة، فإنك إن أعجبت بعبادتك وقلت: وفقني للعبادة لحبي له، فيقال: ومن خلق الحب في قلبك؟ فتقول: هو، فيقال: فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتداءً بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك فإذا لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده، والمحل أيضًا من فضله وجوده.

فإن قلت: لا يمكنني أن أجهل أعالي وإني أنا عملتها فإني أنتظر عليها ثوابًا، ولولا أنها عملي لما انتظرت ثوابًا، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب؟ وإن كانت الأعمال مني وبقدرته فكيف لا أعجب بها؟ فاعلم أن جوابك من وجهين: أحدهما: هو صريح الحق.

والآخر: فيه مسامحة.

أما صريح الحق: فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه، فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] فهذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إِبصار العين، بل خلقك وخلق أعضائك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة، ولو أردت أن تنفي شيئًا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه، ثم خلق الحركات في أعضائك مستبداً باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع، إلا أنه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القلب إرادة، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علمًا بالمراد، ولم يخلق علمًا ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم، فتدرجه في الخلق شيئًا بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلظت. وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتي تقريره في كتاب الشكر فإنه أليق به فارجع إليه.

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة ما، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لا محالة. أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها، ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنت منها فمددت يدك وأخذتها كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مد اليد وأخذها؟ فلا تشك في

أنك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة، وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح. فكذاك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرف عنك الموانع والصوراف، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكّل بك فالعمل هين عليك، وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله، ولا تعجب بوجوده وفضله وكرمه في إثارة إياك على الفساق من عباده إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك، وسلط أخذان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك، ومكنك من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل أترك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد المعاصي وأشقاءه بعدله فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك فإذا لا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلاً إلى مخالفتها، فكأنه الذي اضطرّك إلى الفعل إن كنت فاعلاً تحقيقاً فله الشكر والمنة لا لك، وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه، والعجب ممن يتعجب، إذا رزقه الله عقلاً وأفقره، ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول: كيف منعتني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل؟ حتى يكاد يرى هذا ظلماً، ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعاً لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال، إذ يقول الجاهل الفقير: يا رب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما فهلا جمعتهما لي أو هلا رزقتني أحدهما؟ وإلى هذا أشار علي رضي الله عنه حيث قيل له:

ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إنّ عقل الرجل محسوب عليه من رزقه.

والعجب أنّ العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالاً من نفسه، ولو قيل له: هل تؤثر جهله وغناه عوضاً عن عقلك وفقرك لا تمتنع عنه فإذا ذلك يدل على أنّ نعمة الله عليه أكبر؛ فلم يتعجب من ذلك؟ والمرأة الحسنة الفقيرة ترى الحلبي والجواهر على الدميمة القبيحة فتعجب وتقول: كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح؟ ولا تدري المغرورة أنّ الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال؟ فإذا نعمة الله عليها أكبر. وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه: يا رب لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهال؟ كقول من أعطاه الملك فرساً فيقول: أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب الفرس؟ فيقول: كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس فهب أنني ما أعطيتك فرساً أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى؟ فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها، ومنشأ جميع ذلك الجهل، ويزال ذلك بالعلم المحقق بأنّ العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأ بها قبل الاستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال

ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة. ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى، ولذلك قال داود عليه السلام: يا رب ما تأتي ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم، وفي رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك، فأوحى الله تعالى إليه: يا داود ومن أين لهم ذلك إن ذلك لم يكن إلا بي ولولا عوني إياك ما قويت وسأكلك إلى نفسك، قال ابن عباس: إنما أصاب داود ما أصاب الذنوب بعجبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلاً به حتى وكل إلى نفسه، فأذنب ذنباً أورثه الحزن والندم. وقال داود: يا رب إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: إنني ابتليتهم فصبروا، فقال: يا رب وأنا إن ابتليتني صبرت، فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى: فلاني لم أخبرهم بأي شيء ابتليهم ولا في أي شهر ولا في أي يوم، وأنا مخبرك في سنتك هذه وشهرك هذا ابتليك غداً بامرأة فاحذر نفسك، فوقع فيما وقع فيه. وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لا نغلب اليوم من قلة^(١) وكُلوا إلى أنفسهم فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَانْتَم مُدْرِكَةٌ﴾ [التوبة: ٢٥] روى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال: إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد عليّ أمر إلا آثرت هواك على هواي، فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت. يا أيوب أتى لك ذلك، أي من أين لك ذلك؟ قال: فأخذ رماً وأوضعه على رأسه وقال: منك يا رب منك يا رب، فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] وقال النبي ﷺ لأصحابه وهم خير الناس: «ما منكم من أحد ينجيحه عمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(٢) ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا تراباً وتبناً وطيراً مع صفاء أعمالهم وقلوبهم، فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه؟ فإذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب، ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل، فيخاف من ذلك فيقول: إن من لا يبالي أن يحرم من غير جنابة ويعطى من غير وسيلة لا يبالي أو يعود ويسترجع ما وهب، فكم من مؤمن ارتدّ ومطيع قد فسق وختم له بسوء وهذا لا يبقى معه عجب بحال، والله تعالى أعلم.

(١) حديث: قولهم يوم حنين لا تغلب اليوم من قلة. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلًا: أن رجلاً قال يوم حنين لن تغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأُنزل الله عز وجل ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥] ولابن مردويه في تفسيره من حديث أنس: لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا: اليوم نقاتل؛ ففروا. فيه الفرع بن فضالة ضعفه الجمهور.

(٢) صحيح: حديث «ما منكم من أحد ينجيحه عمله.. الحديث». متفق عليه من حديث أبي هريرة. [البخاري: ٥٦٧٣، مسلم: ٢٨١٦].

بيان اقسام ما به العجب وتفصيل علمه:

اعلم أنّ العجب بالأسباب التي بها يتكبر ، كما ذكرناه ، وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخاطئ الذي يزين له بجهله، فما به العجب ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببذنه في جماله وهيئته وصحته وقوّته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته. وبالجملة تفصيل خلقته، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال في كل حال، وعلاجه ما ذكرناه في الكبير بالجمال وهو التفكير في أقدار باطنه وفي أوّل امره وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقدرتها الطباع.

الثاني: البطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [نمل: ١٥] وكما اتكل عوج على قوّته وأعجب بها فاقتلع جبلاً ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام، فنقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت في عنقه، وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوته كما روي عن سليمان عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة ولم يقل إن شاء الله تعالى، فحرم ما أراد من الولد (١)، وكذلك قول داود عليه السلام: إن ابتليتني صبرت، وكان إعجاباً منه بالقوة، فلما ابتلي بالمرأة لم يصبر، ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب والقاء النفس في التهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء، وعلاجه ما ذكرناه، وهو أن يعلم أنّ حمى يوم تضعف قوته وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

الثالث: العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقاقاً لهم وإهانة، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقيم بشكره، وليستقص عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى؟ وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري. فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله، من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجباً وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفتن لجهل نفسه فيزداد به عجباً.

(١) صحيح: حديث: قال سليمان: لأطوفن الليلة بمائة امرأة .. الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة. [البخاري: ٥٢٤٢].

الرابع: العجب بالنسب الشريف كمعجب الهاشمية، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والإزراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، فليتشرف بما شرفوا به، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، وكانوا عند الله شرًا من الكلاب وأحسن من الخنازير، ولذلك قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣] أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثم ذكر فائدة النسب فقال: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣] ولما قيل لرسول الله ﷺ من: أكرم الناس؟ من أكيس الناس؟ لم يقل: من ينتمي إلى نسبي ولكن قال: «أَكْرَمُهُمْ أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا»^(١)، وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة: فقال الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد: هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة؟ فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ، أَي كِبَرَهَا، كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»^(٢) وقال النبي ﷺ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لَا تَأْتِي النَّاسُ بِالْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَأْتُونَ بِالْدُنْيَا تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ تَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ فَأَقُولُ هَكَذَا - أَي أَعْرِضْ عَنْكُمْ -»^(٣)، فبين أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش. ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ناداهم بطناً بعد بطن، حتى قال ﷺ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ الْمُطَّلِبِ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ اغْمَلَا لَأَنْفُسِكُمْ فَإِنِّي لَا أَعْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^(٤)، فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه، وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في

(١) حسن: حديث: لما قيل له: من أكرم الناس من أكيس الناس؟ قال «أكثرهم للموت ذكراً.. الحديث». أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله «وأكرم الناس» وهو بهذه الزيارة عند ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب. [ابن ماجه: ٤٢٥٩، وانظر صحيح الترمذي: ٣٣٣٥، الصحيحة: ١٣٨٤].

(٢) صحيح: حديث «إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية.. الحديث». أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة [أبو داود: ٥١١٦، وانظر صحيح الجامع: ٥٤٨٢] ورواه الترمذي أيضاً من حديث ابن عمر وقال غريب. [الترمذي: ٣٧٧٠، وانظر صحيح الجامع: ٧٨٦٧، الصحيحة: ٢٨٠٣].

(٣) حسن: حديث «يا معشر قريش لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم.. الحديث». أخرجه الطبراني من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال: يا معشر بني هاشم وسنده ضعيف. [انظر الصحيحة: ٧٦٥، الأدب المفرد: ٨٩٧، ظلال الجنة: ٢١٣].

(٤) صحيح: حديث لما نزل قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ناداهم بطناً بعد بطن حتى قال «يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب.. الحديث». متفق عليه من حديث أبي هريرة [البخاري: ٢٧٥٣، مسلم: ٢٠٤] ورواه مسلم من حديث عائشة. [مسلم: ٢٠٥].

التقوى والتواضع، وإلا كان طاعناً في نسب نفسه، بلسان حاله، مهما انتفى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق.

فإن قلت: فقد قال ﷺ بعد قوله لفاطمة وصفية: «إني لا أغني عنكما من الله شيئاً إلا أن لكم رجماً سألها ببلالها»^(١)، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أترجو سليم شفاعتي ولا يزجوها بنو عبد المطلب»^(٢)، فذلك يدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة؟ فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعته رسول الله ﷺ، والنسيب أيضاً جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته؛ لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعته له، وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعته، كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعته فيما اشتد عليه غضب الملك، فمن الذنوب ما لا تنجي منه الشفاعته وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] ويقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ويقول: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] ويقول: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وإذا انقسمت الذنوب إلا ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لا محالة، ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعته لما أمر قريشاً بالطاعة ولما نهى رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها عن المعصية، ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكتمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكتمل لذاتها في الآخرة. فالانهماك في الذنوب وترك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعته يضاهي انهماك المريض في شهورته اعتماداً على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره، وذلك جهل لأن سعي الطبيب وهمة وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها، فلا يجوز ترك الحمية مطلقاً اعتماداً على مجرد الطب، بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج. فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب، فإنه كذلك قطعاً، وذلك لا يزيل الخوف والحذر، وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله ﷺ أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله ﷺ إياهم بالجنة، خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعته من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم؟

الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم. وهذا غاية

(١) صحيح: حديث: قوله بعد قوله المتقدم لفاطمة وصفية «ألا إن لكما رحماً سألها ببلالها». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ «غير أن لكم رحماً سألها ببلالها». [مسلم: ٢٠٤].
(٢) حديث «أترجو سليم شفاعتي ولا ترجوها بنو عبد المطلب». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله ابن جعفر وفيه أصيرم بن حوشب عن إسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جدا.

الجهل، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وأنهم الممقوتون عند الله تعالى، ولو نظر إلى صورهم في النار وأنتانهم وأقدارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب إليهم، ولأنكر على من نسبه إليهم استقذاراً واستحقاراً لهم، ولو انكشف له ذلهم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجزؤونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد لتبرأ الله منهم، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم، فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين فأما العجب فجعل محض.

السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع، كما قال الكفار: ﴿تَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبا: ٣٥] وكما قال المؤمنون يوم حنين: لا تغلب اليوم من قلة، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً. و﴿كَمْ مِّن فِئْتَةٍ بَلَّغَتْ يَوْمَهُنَّ لِقَاءَ رَبِّهِنَّ فَيُنَادِينَ بِصِوْتِكُنَّ لِئَلَّا يُلْحِقَنَّكُنَّ مِنَ الْعَذَابِ لِقَاءَ الَّذِي لَمْ يَكُن لَّكُمْ بِيَعْتَدُ لَهُنَّ آيَاتٍ أَن يَضُرَّكُنَّ وَلَوْ كُنَّ يَأْتِيَنَّكُنَّ سَاعَةً فَسَجَدْنَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير، فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئاً، وهو أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿١﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢﴾ وَصَنْبَغِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٦] الآية. فأبي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى؟ فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك.

السابع: العجب بالمال كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنين إذ قال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَهْرَ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] ورأى رسول الله ﷺ رجلاً غنياً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه، فقال عليه السلام: «أَخْشَيْتَ أَنْ يَغْدُوَ إِلَيْكَ فَقْرُهُ»^(١)، وذلك للعجب بالغنى، وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَبْتَخِرُ فِي حَلَةٍ لَهُ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢)، أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه. وقال أبو ذر، كنت مع رسول الله ﷺ فدخل المسجد فقال لي: «يَا أَبَا ذَرٍّ ارْفَعْ رَأْسَكَ» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياذ ثم قال: «ارْفَعْ رَأْسَكَ» فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة

(١) حديث: رأى النبي ﷺ غنياً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه .. الحديث. رواه أحمد في الزهد.

(٢) صحيح: حديث «بينما رجل يتبختر في حلة له قد أعجبهت نفسه .. الحديث». متفق عليه من حديث أبي

هريرة وقد تقدم. [البخاري: ٥٧٨٩، مسلم: ٢٠٨٨].

فقال لي: «يَا أَبَا ذَرٍّ هَذَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ قِرَابِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»^(١)، وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى، فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بشروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوراء فكيف يعجب بماله؟

الثامن: العجب بالرأي الخطأ. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْسَبَنَّ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وقد أخبر رسول الله ﷺ: أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة^(٢) وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افتقرت فرقا فكل معجب برأيه: و ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بأرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقا، وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا.

لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه، إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله فإنه لا يصغي إلى العارف ويتهمه، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدّ وتشمر في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور، والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب ولا يصغي إليها ولا يسمعها، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأن رسوله ﷺ صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل، بل يقول: آمنا وصدقنا ويشغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال، فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر.

هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم، فأما الذي عزم على التجرد

(١) حديث أبي ذر: كنت مع النبي ﷺ فدخل المسجد فقال لي «يا أبا ذر رافع رأسك» فرفعت رأسي .. الحديث» وفيه «هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا». أخرجه ابن حبان في صحيحه.

(٢) ضعيف: حديث «أنه يغلب على آخره هذه الأمة الإعجاب بالرأي». هو حديث أبي ثعلبة المتقدم «فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك» وهو عند أبي داود والترمذي. [أبو داود: ٤٣٤١، الترمذي: ٣٠٥٨، وانظر ضعيف الجامع: ٢٣٤٤، ضعيف الترغيب: ١٨٤٦، الضعيفة: ١٠٢٥].

للمعلم فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكبر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدًا، فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال.

تم كتاب ذم الكبر والمعجب والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *